السياسة اللغوية في نهج البلاغة
دراسة في ضوء اللسانيات العرفانية

م.م. زينب ثجيل نعمة
مديرية التربية في النجف الأشرف

أ.د. عباس علي الفحّام
جامعة الكوفة – كلية التربية للبنات

الملخص :
تقوم مشكلة البحث على بيان الأثر الذي قام به الإمام علي (عليه السلام) في تنظيم المجتمع على أسس أخلاقية رصينة عن طريق بيان أبعاد السياسة اللغوية وطبيعة استعمالها في النحو الذي يفهمه الواعي المثقف وغير الواعي ، وعلاقتها بالكفاية اللغوية التي تومئ إلى من يمتلكون عنان اللغة ، والمنهج الذي اعتمده الإمام (عليه السلام) في خطابه إلى الجمهور ، وإنّ البحث اعتمد الإشكاليات المسهمة في تعدد الأساليب ، التي تعد فرعاً من فروع السياسة اللغوية ، وقد وردت في كلام الإمام (عليه السلام) مقترنة بالتوحيد اللغوي ، كل ذلك جاء من أجل الوصول إلى معادلة كونية قائمة على الإيجاب والسلب ، وتحويل الإنسان من السلب إلى الإيجاب ؛ ليصبح مستعداً لانطلاقه في الكون ، ووصوله إلى أعلى درجات الكمال ، التي أرادها الله تعالى لعباده الذين خلقهم في أحسن تقويم ، وذلك بدءا بتقويم النفس التي بين جنبيه تأسيسا لأرضية صالحة للفرد والمجتمع على السّواء واحتوائهما ، وهذا لا يكون إلّا عن طريق صراع قوى النّفس ، ثم الانتصار إحداها على غيرها بطريق الإقناع والتراضي .

Abstract:
The research problem is based on showing the effect that Imam Ali (peace be upon him) has been done in organizing society on a solid ethical base by showing the dimensions of linguistic policy and the nature of its use in the manner that understood by both educated and unconscious people, and its relationship to the

positive (good); to become ready for its launch in the universe, and its arrival to the highest levels of perfection which God Almighty wanted to His servants whom He created in the best of calendars, starting with the correction of the soul between its sides to establish a suitable ground for the individual and society alike and contain them, and this can only be through the struggle of the powers of the soul, then victory for one of them upon the other in the way of persuasion and compromise.

linguistic competence that alludes to those who possess the meaning of language, and the approach adopted by the Imam (peace be upon him) in his speech to the public. The research relied on the problems that contribute to the multiplicity of styles which are a branch of the linguistic policy, and this is showed up in the speech of Imam Ali combined with uniqe language. A cosmic equation based on positive and negative, and the transformation of people from negative (bad) to

توطئة :

إنّ الاجتماع من الضرورات الثابتة للنوع الإنساني ، فالإنسان مدني اجتماعي بالطبع ، ولا بد لهذا الاجتماع من حاكم يسوسه عقليًا ودينيًا ؛ كي يضعه على اللبنة الأولى من الجادة المستقيمة والصحيحة ، وحتى يحصل هذا الأمر لابد من توفر ركيزتين هما : الطريقة والسليقة وهذه الأخيرة تقترن باللغة ، وأما الطريقة فهي السياسة ، وكلاهما ينتجان من عقل يتسم بالذكاء ، والحكمة ، والمعرفة ؛ لذا سنحاول تسليط الضوء على مصطلح السياسة اللغوية وعلاقته باللسانيات العرفانية والمفاهيم المرتبطة بهما ؛ لغرض إعطاء صورة واضحة للقارئ من خلال بيان الحدود ، التي تجيب عن أسئلة تدور في الذهن وهي : ما السياسة اللغوية ؟ وما العلاقة بين مفردتي التركيب ؟ وهل هناك لغة للسياسة وبالعكس ؟ وما العلاقة الرابطة بينها وبين اللسانيات العرفانية ؟ تلك أسئلة يُجاب عليها إذا ما علمنا أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية ، ووسيلة يتخذها علماء الاجتماع لدراسة الظواهر اللغوية والخطاب المشتمل على المعاني الظاهرة والماوارئية ، التي أولتها اللسانيات العرفانية اهتماما بالغا يفوق الشكل ، والتي تسهم في تنظيم المجتمع على أسس أخلاقية رصينة ، ويكون ذلك عن طريق بيان :

– مفهوم السياسة اللغوية وطبيعة استعمالها في النحو الذي يفهمه الواعي المثقف وغير الواعي.

– علاقة السياسة اللغوية باللسانيات العرفانية والكفاية اللغوية التي تومئ إلى من يمتلكون عنان اللغة.

– المنهج الذي اعتمده الإمام **(عليه السلام)** في خطابه إلى الجمهور ، عن طريق تعدد الأساليب وتنوعها التي تعد فرعاً من فروع السياسة اللغوية .

لمعرفة السياسة اللغوية في المنظور العرفاني ، لا بد من الوقوف عند حدود مفردات المفهوم معجميا واصطلاحيا ، ثم إيجاد العلائق أو الأواصر التي تربط بينها ، فضلا عن بيان علاقتها باللسانيات العرفانية ، التي تنحدر منها جملة من العلوم سيما علم الاجتماع أو اللسانيات الاجتماعية ، التي تتعاطى اللغة ؛ لكونها تشكل مكونا ثقافيا يُعنى بالعلاقات القائمة بين أفراد المجتمع الواحد والمجتمعات الأخرى .

السياسة في اللغة :

فالسياسة عند علماء اللغة لا تخرج عن معنى الرياسة والملك ، والقيام بإصلاح الأمور وترويضها أو تدبيرها ، وهي من السوس وتعني ((الرّياسة... وسُستُ الرّعيّة سياسة ... إذا مُلّك أمرهم ... والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه . وقال غيره : سوّس له أمراً أي روّضه وذللّه))[١] ، وأقنعه وجعله منقادا له ، وقال الزبيدي :((من المجاز : (سُستُ الرَّعِيَّة سِيَاسَةً) ، بالكسر : (أمرتها ونهيتها).))[٢] وبهذا يومئ إلى السلطة والهيمنة ، وفي المعجمات الغربية تعني السياسة : البلدة أو الدولة أو الدستور السياسي أو نظام الحكم ، أو النظام السياسي ، وكل ما يتعلق بالدولة[٣] وشؤونها.

السياسة في اصطلاح العلماء :

وأمّا علماء الاصطلاح فقد قال عنها أرسطو : ((هي علم السيادة وهي سيدة العلوم))[٤] ، ويعني أنَّ السياسة أساس كل علم وبدايته ، وكل أساس أو نشأة لأي علم يحتاج فيه إلى تخطيط محكم وتنظيم رصين ، ما يعني في ذلك إيماءة إلى معنى التدبير ، الذي أشار إليه ابن سينا في تعريفه للسياسة قائلاً : هي ((حسن التدبير الذاتي والجماعي وإصلاح الفساد الذي هو طريق السعادة))[٥] ذلك الطريق الذي يتحقق بنوعين من التدبير : تدبير الفرد لنفسه وأموره وسياستها وهي ما تسمى بالسياسة النفسية ، التي تختص بفئة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، ثم تدبير الجماعة وسياستهم والتأثير فيهم عن طريق الإقناع أو الإكراه ، أو هي ((القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح ، وانتظام الأموال ، وحياطة الرعية بما يصلحها ، لطفا وعنفا . أو هي استطلاع الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل))[٦] ذلك الطريق الذي يقرّبهم من الصلاح ويبعدهم عن الشرور والفساد .

وأما اللغة فهي تصنيف مقولي يقوم بخلق الأشياء وإيجاد الروابط بينها ، وهي في المعجمات اللغوية تعني الكلام ، وفي الاصطلاح اتفق أغلب العلماء على تعريف ابن جني (ت٣٩٢هـ) للغة ، وهي ((أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم))[٧] ونشاطهم وسلوكهم الاجتماعي فبدون اللغة لا يتحقق أدنى نشاط [٨] ، ويعرّفها ابن خلدون بأنّها ((عبارة المتكلم عن مقصوده))[٩] ؛ لأنّها ((موضوعة لغرض تبليغ المعنى))[١٠] المراد إيصاله إلى السامع ، ((وتلك العبارة فعل لساني ، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان))[١١] ذلك الوسيط المترجم لما يدور في الذهن من أفكار متأتية من الفهم السليم للطبيعة الكلامية ، التي يُنجَز بها المعنى المتشكّل وفقا للعمليات الذهنية العرفانية[١٢] ، إلّا إنّ علماء النفس وسّعوا في معنى اللغة ، وأخذوا يطلقونه على مجموع الإشارات التي يعبّر بها عن الفكر ، أو ما تسمى باللغة الإشارية ، أو غير المنطوقة ، تلك الإشارات التي قد تكون متفق عليها فتسمى اللغة وضعية ، أو غير متفق فتسمى لغة طبيعية فتشتمل على الحركات والأصوات ، والظواهر الجسدية المصحوبة بالانفعالات والأفكار[١٣] ، فـ((المعلومات المحملة عن طريق اللغة تصاغ بالطريقة التي ينظم بها التجربة))[١٤] أو القانون.

ومن هنا يمكن القول إنّ السياسة اللغوية " Linguistic Policy " هو مصطلح دوراني متداخل بين مفردتيه المركب منهما ، وقد عرّفها لويس كالفي " Louis–Jean Calvet " قائلا : بأنّها((مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن))[١٥] ، أوهي ((الإطار القانوني والتهيئة اللغوية))[١٦] ؛ لإيضاح القانون أو القرار المحدد من الدولة أو الحاكم ، وقوله الخيارات يعني القرارات والقوانين التي تنتجها السياسة وتقوم عليها ، وبوصفه لها بالواعية أنّها تُسَن وتصدر عن عقل واعٍ يُدرك ويقصد ما يقوم به – لأنّ السياسة بطبيعة الحال لابد لها من تخطيط محكم وتنظيم متين– بمعنى أنّ هناك تخطيط مسبق لها كامن في الذهن ، فاحتاج إلى لغة فصحى رصينة لإقرارها وبيانها للمجتمع ، وهنا تتقاطع السياسة اللغوية مع اللسانيات العرفانية ؛ ذلك أنّ الأخيرة ((مهمتها النظر في معالجة الدماغ للمعلومات خزنًا وتحليلًا ، وتأليفًا ، وخلقًا))[١٧] وهذه المعالجة العرفانية لا تخص الإنسان في نشاطه اللغوي ، وإنما تشمل جميع الأنشطة والقدرات التي يقوم بها في كل ميادين الحياة من قبيل قدرته على تكوين تصورات منظمة تسهم في تطويع

الأصول المنطقية لفسيولوجيا عملية التفكير والتخطيط في الدماغ البشري[١٨] ، وتكوين المقاصد وفهمها ، عن طريق ((ترتيب التنوعات اللغوية وتنظيمها ... واقتراح الحلول وانتقاؤها))[١٩] الناشئة من تداخل ((آليات الاشتغال الذهني مع آليات التعبير اللساني لتفعيل القدرة التواصلية بين المتكلم والمتلقي في عالم الإنسان))[٢٠] ، وهذا التنوع اللغوي والتداخل بين الآليات الذهنية والقدرات التعبيرية مؤداه تنوّع السياسات اللغوية ، وأبعادها .

أبعاد السياسة اللغوية في ضوء المنظور اللساني العرفاني

إنَّ العلاقة القائمة بين السياسة واللغة هي علاقة استثمارية ؛ ذلك لحاجة السياسة إلى اللغة ، والسياسة لا تكتسب قيمتها العرفانية إلّا إذا تحوّلت إلى واقع اجتماعي منجز ، ولا يكون ذلك إلّا عن طريق اللغة والفكر المدبّر المنتج لها ؛ وعليه فالسياسة والجماعة بعدان أساسيان متلازمان ، متى ما وُجِدت السياسة وُجِدت الجماعة وبالعكس ؛ ذلك أنّ السياسة متعلقة بالفرد والمجتمع بمجالاته الحياتية كافة ، وهذا يحتاج إلى لغة متنوعة الأساليب لإيصال المعلومات والمفاهيم إلى ذلك الفرد أو تلك الجماعة ، وهذان البُعدان ينطوي تحتهما أبعادا ترسم القواعد السلوكية بعد معرفة القواعد النظرية والفكرية ؛ لتجسّد التواصل التفاعلي بين السياسة والواقع الاجتماعي ، ومدى تأثيرها في الطرف الآخر عرفانيًا ، وتلك الأبعاد هي:

أولا : البعد التأسيسي العرفاني .

إنَّ المسؤولية الملقاة على عاتق الحاكم تجاه المجتمع أو الرعيَّة –مسؤولية تأسيسية– وتحمُّل أعبائها أمر مفروض وحتميّ، وقد حثّ على ذلك النقل –القرآن والسُّنَّة النبوية– والعقل ، منه قوله تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[الصافات : ٢٤] ، وقول الرسول الأعظم **(صلَّى عليه وآله وسلَّم)** : **(إنِّي مسؤول وإنَّكم مسؤولون)** عن رعاياكم الذين هم تحت ولايتكم ، وأنفسكم التي بين جنبيكم ، وقول أمير المؤمنين **(عليه السلام)** : **((اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُم مَسئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ، أَطِيعُوا اللهَ وَلَا تَعْصُوهُ))**[٢١] تأكيدا للمسؤولية الجليلة التي يحملها الحاكم أو الوالي . وتتحقق هذه المسؤولية على الوجه الأكمل الذي يرتضيه الخالق والمخلوق ، بمسلكين : **المسلك الفردي** ، ويتعلق بذات الفرد ؛ أي نفسه التي بين جنبيه والسير بها على الجادة المستقيمة ، بمعنى تطويعها وتأسيس الأرضية الصالحة ، بالشكل الذي يمنحها الهيمنة ، والسيطرة على قواها الشهوية ، والغضبية ، المؤدية بها إلى طريق الرذيلة ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك ، قال تعالى :﴿**إِنَّ**

اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١] ، وهذا الأمر ليس بالشيء الهيِّن ، بل يحتاج إلى عزم وإرادة ، وتوفيق من الله سبحانه ، فهو وجه من وجوه الجهاد ، التي ذكرها النبي الأكرم صلوات الله عليه وسلامه ، **فقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)((أنَّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بعث سرية فلمَّا رجعوا ، قال : مَرْحَبًا بِقَومٍ قَضُوا الجِهَادَ الأَصْغَرَ وَبَقِيَ عَلَيهِمُ الجِهَادُ الأَكْبَرُ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهَ وَمَا الجِهَادُ الأَكْبَرُ؟ قالَ : ((جِهَادُ النَّفْسِ))))**[٢٢] الذي عبّر عنه الإمام **(عليه السلام)** عن طريق بيان الكيفية التي يحصل بها ذلك الجهاد ، والمعبّر عنها بعملية الترويض – عملية التأسيس الذاتي– تلك العملية التي تتطلب جهدا ليس باليسير ، قائلاً : **((وَإِنَّمَا هِيَ نَفسِي أَرَوضُهَا بالتقوى لِتَأتِيَ آمِنَةً يَومَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتُ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ))**[٢٣] ، لو اطلعنا على النّص بإمعان ، ودققنا النظر فيه ، لوجدنا أنّ الترابط المنظّم القائم بين البنيات التلفّظية ، يعزز مبدأ التأويل ويومئ إلى السياسة العرفانية من جانبين :

– **الأول** : كون المتكلم مثلهم من الناحية التكوينية ، وإن علا شأنه من جهة كونه قائدا عليهم ، وقد أفصحت عنها البنية التصورية (هي نفسي) المقيَّدة بأداة الحصر (إنّما) ، وأشار الكتاب العزيز إلى هذه الخاصية ، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾[الكهف :١٠١] ، وقوله تعالى:﴿**مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ**﴾[المؤمنون :٣٣] ؛ أي لا فرق بينه وبينهم ظاهرا ، إلا بالتقوى . فالفرق بينهما ذاتي لا عيني .

– **الثاني** : التربية الانعكاسية[٢٤] المستنبطة ، والملاحظة من الموجود الخارجي للبنيات التركيبية التصويرية الظاهرة على سطح النص ، المرتبطة بالصورة الذهنية ، التي يكوّنها الإمام**(عليه السلام)** عن طريق توجيه خطابه للسامع محاكياً نفسه ، جاعلاً منها مرآة عاكسة لمن يسوسهم ، وهو المعبّر عنه **بالمسلك الجمعي** ، الذي يعد متمما للمسلك الفردي أو الشخصي ، الذي عن طريقه يتمكن من السيطرة والسير بالمجتمع نحو الصلاح والاستقامة ووقايته من الانجراف نحو الهاوية ، ويكون ذلك بالصلاح الشخصي أو الفردي للحاكم أولاً ، فقوله **(عليه السلام)** : **(إنما هي نفسي أروضها بالتقوى)** متوالية اشتملت على بنية إيحائية تصورية ذات بُعد فكري تأسيسي ، تربوي انعكاسي ، افترضت تفاعلًا بين المرسل والمتلقي ، وهي من مسلّمات النظرية التواصلية الاجتماعية ، وهذه المتوالية استبطنت جملة من الأمور ، منها :

١– قصر الترويض وحصره بالذات الإنسانية على وجه العموم– بوصفها عملية

تأسيس للذات كما ذكرنا في الوضع العام لحالة الإنسان والمجتمع- التي أوضحته الأداة **(إنَّما)** ، لا قصره على نفس المتكلم فحسب ، وإن اقترنت بياء المتكلم الدالة على وجود المتكلم ظاهرًا ، وهذا يكون عن طريق تحكيم العقل (القوة العاقلة) ، الذي به كمال الإنسان ورُقيِّه ، وتمكينه من إدارة هوى النفس -تثبيت دعائم تأسيسها- المتمثل بالقوتين الشهوية والغضبية ، الذي هو امتداد لإدارة المجتمع وتأسيسه ، وقيادته نحو الصلاح ، ولا يمكن تحكيمه ، وتمكينه ، وتثبيت أسسه إلّا بعد تحصينه بالعلم ، الذي هو سلاح العقل ، وقد قال الإمام **(عليه السلام)** في ذلك : (جهاد النفس بالعلم عنوان العقل)[٥]، الذي هو سلاح الإنسان ، أضف إلى ذلك توسط المركب الاسمي**(نفسي)** بين الضمير المنفصل **(هي)** المتقدِّم عليها والعائد إليها ، والضمير المتصل **(الهاء)** المقترن بالفعل **(أروضها)** ، ينبئ عن ضرورة الترويض للذات الإنسانية واختصاصها به؛ لما تمتلكه تلك الذات من قدرة ، وقوة إذا ما ارتفعت طغت ، وعاثت في الأرض فساداً.

٢- المتوالية التصورية **(أَرَوضُهَا بالتقوى لِتَأتِيَ آمِنَةً يَومَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتُ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ)** أعطت بُعدًا عرفانيًا سياسياً ، فكانت عبارة عن مقدّمة ونتيجتين ؛ إذ كشفت عن أمرين :

الأول : الباعث الباطني الذي من أجله حصلت عملية الترويض ، وهو المولى جلّ شأنه، الذي عبّرت عنه البنية الذهنية التصورية (بالتقوى) ، التي هي في الفكر المنطقي ، تعد مقدمة أو دعّامة أساس **ترتكز أو تقوم** عليها عملية الترويض ، أو عملية التأسيس الذاتي ، تلك العملية المتأتية من مبدأ التعقُّل القلبي ، الذي يضم ثلاث ملكات إدراكية ، اثنتان تؤلفان النظام الإدراكي الداخلي (العقل المجرد والقلب) ، والثالثة ملكة الحس التي تؤلف نظام الإدراك الخارجي ؛ أي العالم المحيط بطرفي عملية الخطاب (المرسل والمرسل إليه) ، فتكوِّن حلقة وصل بين الواقع الخارجي والداخلي النفسي[٢٥] .

الثاني: استمرار عملية الترويض ؛ إذ لا تتحدد بزمن ، ولا تنتهي إلا بمفارقة صاحبها العالم السفلي ، ولحوقه بالعالم الأخروي ، وإنّما الاستمرارية فُهِمت من البنية الزمانية ، والبنية المكانية المتصدّرتين بالأفعال المضارعة(لتأتي ، وتثبت) الدالة على التجدد والحدوث ، واللام المقترنة بفعل الإتيان ، التي جاءت لتعلل ضرورة الاستمرار في ترويض النفس ، وعدم الفتور في ذلك ، بالشكل الذي يولّد له شعورًا بتغلبه على ذاته ، وعدم احتياجه إلى ما يقرّبه من المولى سبحانه ؛ بمعنى أمْنه من مكر الله الذي فيه الخسارة العظيمة ، وقد أشار الكتاب العزيز

إلى ذلك قال تعالى : ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[الأعراف : ٩٩] ، وكأنّ رياضة النفس الدائمة على التقوى ، والسير في طريق الله بمثابة مقدِّمة ، أو علّة لوصولها إلى الأمان في ذلك اليوم ، الذي ترتعد فيه الفرائص ، والثبات الدنيوي من مزالق الفتن ودهاليز الشيطان ، الذي هو امتداد للثبات الأخروي المتمثّل بالمرور على الصراط المستقيم .

وبهذا استطاع الإمام **(عليه السلام)** بسياسته اللغوية ، وقدرته العرفانية أن يتغلغل في النفوس ، وإيصال المقصود إلى وعي المخاطب وفكره ، لأنّ صلاح الجزء مدعاة لصلاح الكل ، وإن كان الإمام **(عليه السلام)** يشكِّل الكل الفردي واللولب الذي تدور حوله الأجزاء ، الذين هم أفراد الرَّعيَّة ، وإنّما قلنا صلاح الجزء تجوّزاً بوصف الإمام فردًا من أفراد النوع الإنساني .

البعد الاحتوائي العرفاني :

إنّ الحنكة والنظر في الأمور ، التي تشمل مجالات الحياة جميعها ، تجعل من المتبصر الحاذق قائداً عرفانياً قادراً على سياسة العالم ، والواقع المحيط به بفصائله كافة ، عن طريق التواصل المتفاعل بين الأفراد ، واحتوائهم ، المتأتي من الفهم والإدراك ، بما يجعلهم يبادلونه الفهم والاستيعاب ، وهذه القيادة تقوم على ركيزتين[٢٦] هما :

الأولى : تمكين الدين الإلهي وتحكّمه في المجتمع ؛ وذلك عن طريق الحث على التقوى.

الثانية : إزالة حالة اللاأمن وإبداله بحالة الاستقرار الاجتماعي المتكامل ، عن طريق الحث على العبادات الخالية من الزيف وكل أنواع الشرك ، وهو ما تسعى الحكومة الإلهية وتهدف إليه .

وهاتان الركيزتان إحداهما مكمّلة للأخرى ، بمعنى أنّ حلول الاستقرار في المجتمع مستلزم لنشر الدين الإلهي وهيمنته عليه ، وتقوم جلّ خطاباته **(عليه السلام)** إن لم تكن كلها على هاتين الركيزتين ،منها ما جاء في خطبة له يحمد الله سبحانه فيها ، ويثني على نبيه **(صلى الله عليه وآله وسلّم)** ، ويعظ بالتقوى ، قائلاً :((**الْزَمُوا الْأَرْضَ ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً ، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ بِسَيْفِهِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً**))[٢٨] .

يتضافر في مقصدية النص بعدان أساسيان هما :

– **البعد الأول** : الصراع الداخلي بين قوى النفس الإنسانية ، ما بين ثائرة الغضب ، ولهيب الشوق إلى الجهاد ونيل الشهادة ؛ ذلك أنّ الإنسان ((كائن ذو بنية عصبية وجسد متحرك ... تجعله قادرا على إدراك ما حوله وعلى تمثله وتكوين صور ذهنية عنه))[٢٩] بالشكل الذي يتيح له ((التواصل مع العالم المحيط به بكلّ معطياته))[٣٠] المؤججة لهذا التداخل والحراك المتفاعل داخل النفس البشرية . ذلك الصراع المهيمن على صفوف جيشه ونفوس أتباعه ، والمقروء من الإمام **(عليه السلام)** لأنفس متلقيه ، والمستوحى من البنيات التلفظية الظاهرة على سطح النص(**الْزَمُوا الْأَرْضَ ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ)** الدالة جميعاً على معنى الكياسة ؛ إذ إنّ التدقيق في هذه البُنى يفاد منها الآتي :

إنَّ المنوال التركيبي الدال عليه الوحدة الكلامية الإنجازية (ألزموا) شكّل بنية إشعاع تنطلق منها المعاني المتعاقبة منطقياً ، التي أفصحت عنها الوحدات الكلامية التالية لها ، والمشتركة معها في وحدة كلامية إنجازية ، تمثّلت بالصيغة الصرفية "افعل" هذه الوحدة التي أفادت معنى الأمر ، والصيغة الصرفية "لا تفعل" التي أعطت معنى الترك ، تلك الوحدات المبتنية على العلة والمعلول الكاشفة عنها أداة الوصل الواو ، وقد مثّل هذا المنوال **المستوى القاعدي** ، أو الأساس لمعنى الثبات ، وهو المستوى الأكثر من بين عناصر المقولة ، التي تكون فيه ((سمات مشتركة سواء كانت تتعلق بالشكل أو الوظيفة ... التي توافقها))[٣١] ، فتتفرع منه البنيات التصورية اللاحقة له (اصبروا ، ولا تحرّكوا ، ولا تستعجلوا) ، التي تشكّل المستوى الفرعي ، والمشتركة مع المستوى القاعدي من الناحيتين الشكلية والوظيفية ؛ لاشتمالهما على خصائص متشابهة– في كونهما أفعالاً طلبية – وعندما وظّف الإمام **(عليه السلام)** المنوال التركيبي (الزموا) مستوىً قاعدياً ، وظّف بمقابله في المستوى الأدنى ، أو الفرعي المناويل التركيبية المتفرعة عنه للتناغم المتدرج بينها ، فحصل التشاكل في المقولة تركيبيًا ومعنويًا ، تمثّلت في صورة الثبات ورباطة الجأش ، المستلزم لعدم الحراك بما تلوّح له نفوسهم وأهوائهم ، والصبر المستلزم لعدم التعجُّل في قضاء الله وقدره . وهنا تفعيل للقوة العاقلة أو القوة النظرية ، وتمكينها على باقي القوى المرتبطة بالسلوك العملي ، بل إنّ الأخيرة هي امتداد للقوة العاقلة وترجمانٌ لها ، ممارسة في ذلك مبدأ الاحتواء، بالشكل الذي يهيئ حالة من الاستقرار في الوسط المجتمعي ، الذي به تتحقق الركيزة الثانية –المذكورة أعلاه – من ركائز البعد الاحتوائي العرفاني .

– **البُعد الثاني** : الإقناع والتراضي الذي رسم فيه الإمام **(عليه السلام)** معالمه عبر متواليتين شكّلتا نتيجة للمستويين القاعدي والفرعي ، وكأنه يريد أن يبين لنا ، أو يُعلمنا بأنّ للجهاد ، والشهادة صور متنوعة ، ومن هذه الصور تلك التي عبّرت عنها **المتوالية الأولى** التي كانت عبارة عن نتيجة تفصيلية جاءت بطريقة الشرط المتعدد الجزاء ، المتمثلة بـ**(فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيْداً ، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَّامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ بِسَيْفِهِ)** ، **والمتوالية الثانية**الخبرية **(فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً)**هي نتيجة إجمالية عقلية حتمية الوقوع.

ولو نظرنا بتمعُّن إلى هاتين المتواليتين ، ثمة أسئلة تتبادر إلى الذهن ، وهو ما المراد من المعرفة ؟ وما الحق الذي يجب معرفته ؟ وما علاقة المعرفة بالنية ؟ ولماذا أطال توضيح صورة الشهادة في المتوالية الأولى ، ثم أوجز في المتوالية الثانية ؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة هناك أمور ثلاثة لابد من الإشارة إليها ، هي :

الأمر الأول : المعرفة هي إدراك الشيء وتجلية العلم ، المؤدية إلى الخروج من عالم الغفلة إلى عالم اليقظة[٣٢] ، التي بدورها ترشدنا إلى معرفة الحق المتصل بالمولى(جلّ شأنه)،والحق المتصل برسوله**(صلى الله عليه وآله وسلّم)** ، وأهل بيته **(عليهم السلام)**،المتمثل بالعبودية والدعوة إلى توحيد كلمة الله ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، ويُلحظ مما ذُكِر إشارتان :

الأولى : إنّ الواو الواصلة بين التراكيب سيما بين التركيبين(معرفة حق الله وحق رسوله وأهل بيته) أفادت مطلق الجمع ؛ للإشارة بأنّ الحقين واحد ، الأول ثابت له بالأصالة ، والثاني ثابت له بالفرع ، وهذا ما يقودنا إلى الإشارة **الثانية** : من أنّ الواو الواصلة وإن أفادت مطلق الجمع ، إلا إنّها أعطت معنى المغايرة ؛ لاقتران لفظة (حق) بالمولى(جلّ شأنه)(معرفة حق الله) ، وبرسوله**(صلى الله عليه وآله وسلّم)** ، وعدم اقترانها بأهل بيته (وحق رسوله وأهل بيته) ؛ للدلالة على المغايرة النوعية من حيث الوجود ؛ إذ إنّ المولى(جلّ شأنه)واجب الوجود مطلقًا ، فالحق ثابت له أصلا وبالذّات – ولولاه لما ثبت الحق لرسوله**(صلى الله عليه وآله وسلّم)** ، فهو سبحانه واجب الطاعة بالأصل– ورسوله **(صلى الله عليه وآله وسلّم)** ممكن الوجود مقيّد بإيجاد ، فيكون واجب الطاعة بالفرع وبالعرض ، ولم يقرنها مع أهل بيته ؛ لأنّهم من سنخ الرسول**(صلى الله عليه وآله وسلّم)** نوعاً وغاية ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذه المماثلة والمغايرة في الحق والطاعة ، قال تعالى :

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾**[النساء : ٥٩] ، ما يؤكّد أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلّم)مصداق للكمال الإلهي ، فما يثبت للمولى**(جلّ شأنه)يثبت للرسول الأكرم(**صلى الله عليه وآله وسلّم**)- في الطَولِ لا في العَرَض- ماعدا العبودية .

الأمر الثاني :النية تعني العزم على القيام بشيء معلوم مسبقا للفرد ، أو تعني العزم المسبوق بالشوق الناتج عن العلم بمعرفة آثار الأشياء[٣٣] ، ما يعني أنّ المعرفة مقدّمة وجودا على النية ، وبما أنّ المعرفة تتعلق بالإدراك وهي سابقة على النية ، وهذه الأخيرة هي حالة فكرية متعلقة بذاك الإدراك أو الوعي ، فهي إذن ((عملية إدراكية تسبق الفعل فتوجّه العقل نحوه))[٣٤] وتوجده، أو يسعى لإيجاده في الخارج ، ففي قوله (**وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ**)يبين أمرينيُوجب الثواب بتحققهما، هما :

الأول : المعرفة المسبقة بالعمل وإدراكه ووعيه بما يقوم به، وهو ما أشرنا إليه .

الثاني : اقتران العمل بالصلاح حتى تتحقق الغاية المرجوة وهي نيل الشهادة ، التي هي الثواب الواجب المتحصل من عزمه ونيته .

وقوله (**وَقَّامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ بِسَيْفِهِ**) ، يومئ إلىالعملية الإدراكية ، والتوجيه العرفاني الذي أسهم في بيان التمازج الوطيد بين العزم الذهني المتمثل بـ(النية) ، والعزم الفعلي المتحقق على أرض الواقع المتمثل بـ(بسحب السيف من غمده) ومقاتلة العدو ، وحلول الأول محل الثاني؛ أي جعل ما كان راسخاً في الذهن ، كأنّه متحقق في الخارج ، وكل ذلك متعلق بالعزم الحقيقي الصادق ، فكان هذا التصوير العرفاني ، والإيضاح البياني ؛ من أجل الحفاظ على وحدة الإسلام ولحمته ، واحتواء الطرف الآخر – الفرد المتلقي أو السامع- واستيعابه .

الأمر الثالث : البيان لقاعدة كلية حتمية الوقوع تمثلت بقوله : (**فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً**)، فهي وإن كانت خاتمة لنهاية الخطاب ، إلّا إنها شكّلت البؤرة الجامعة بين القضايا الإنشائية ، فكانت بمثابة نتيجة لكل قضية إنشائية – أمر أو نهي- وبين المتوالية الشرطية المتعددة الجزاء، فكانت بمثابة قاعدة كلية بيانية لما فسّرته وأوضحته من صور الشهادة والجهاد ، ويمكن توضيح ذلك بالخطاطة الآتية :

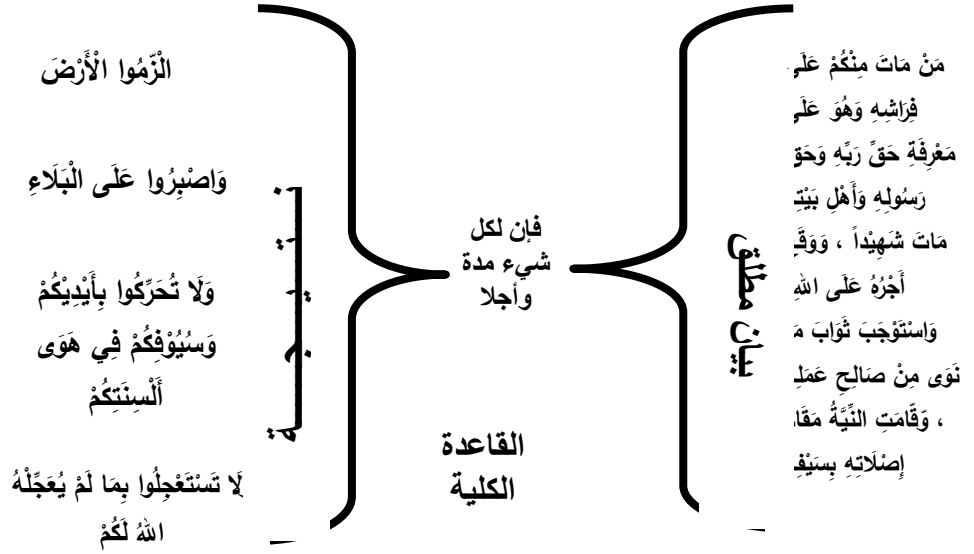

يلحظ من السابق ذكره الآتي :

– التنوع في الصياغات التركيبية وإنتاج الجمل ، من أجل إيصالها إلى المتلقين أو السامعين للخطاب في زمن التلفظ ، وتفهيمها لهم وإدراكهم إياها ، فضلا عن تنظيمها بطريقة هندسية في الذهن بما يتلاءم وهندسة العالم ، وهذا ما سنعرض إليه في الفصل الثاني .

– المستوى العرفاني السياسي الرّصين الذي ينماز به الإمام **(عليه السلام)** ؛ إذ إنّه يوصل المفاهيم إلى كل المستويات–الجاهل والمتعلم ، القاعد والمجاهد– مع الحفاظ على رصانة اللغة من غير أن يحدث انحطاط أو رداءة ، محاولًا مد جذور لغوية في أصل الفكر العربي ؛ لتأصيل اللغة والحفاظ على معاني الكلمات ، حتى لا تؤثر عليها تيارات فكرية تحتوي على معنىً لم يؤصّل له في القرآن الكريم ، ذلك المعين الثَّر الذي يغترف منه الإمام **(عليه السلام)**، الذي((تهتف آياته وتنادي بلسان عربي مبين بأن الإسلام "دين دولة وتشريع وحكومة"))[٣٥] ، فالإمام **(عليه السلام)**، كان قائداً مشرّعاً ، وحاكماً منفذاً لحدود الله سبحانه وأحكامه ، ومهيمناً على الدولة ، وشؤون الحكم ومقتضياته ، متبعاً في ذلك نهج الحبيب المصطفى **(صلّى الله عليه وآله وسلّم)** وسنته القويمة .